مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

العدد الواحد والخمسون - مارس 2012

أدوار المدرس (ة) في سياق نظام تربوي قيد الإصلاح

المصطفى الحسناوي

ممارس بيداغوجي وباحث تربوي - مريرت -

يعتبر الإستثمار في العنصر البشري - عبر بوابة التعليم القويم والتربية السليمة للناشئة - رأسمالا ثمينا لكل مجتمع، باعتبار بناء الإنسان يتم من خلال المدرسة «التربية»، إذ «لا نربي نفسا ولا جسدا، إنما إنسانا» كما قال «مونتاني».

لذلك لا يستقيم دور المنظومة التعليمية كقاطرة للتنمية، إلا بإعادة الإعتبار للمدرس (ة) المغربي (ة)، لكونه (ها) حلقة حاسمة في مسلسل إصلاح التعليم ببلادنا، وبالنظر إليه (ها) كإنسان ثم كممارس بيداغوجي ننتظر منه الكثير.

فما هو دور المدرس في إطار الإصلاحات التي يشهدها قطاع التربية والتكوين ببلادنا؟

وما هي الكفايات التي يجب أن يتوفر عليها في سياق نظام تعليمي مطبوع بمتغيرات عديدة؟

هل يتم التفكير بجدية في بلورة مرجعيات جديدة وملائمة لتمكين المدرس من المهارات والخبرات والكفايات التي تجعله قادرا على تأدية/أداء أدواره على نحو أفضل؟

متى ستتم إعادة الإعتبار «**للرسول المغبون**»، وذلك بالتعهد برعايته ماديا واجتماعيا لتمتيعه بمكانته الرمزية المفتقدة اليوم؟

I - أدوار المدرس (ة) بين الأدبيات التربوية القديمة والحديثة :

تتفق الأدبيات التربوية القديمة (بما فيها الإسلامية) مع نظيرتها الحديثة، فيما يخص الإعداد الجيد للمدرس (صناعة المدرس)، لاسيما فيما يخص الشروط والمواصفات النفسية والعقلية والمظهرية الواجب توفرها في الممارس لمهنة التعليم كي يحظى بالقبول والتأثير الإيجابي في متعلميه.

إلا أن العديد من الأمور تغيرت في عصرنا الحاضر، فأصبح المدرس في أمس الحاجة للإطلاع على مرجعيات حديثة بما فيها الإطلاع على النظريات التربوية ونظريات التعلم وعلم النفس ... كما أضحى لزاما عليه نهج علاقة أفقية مع المتعلمين، تحقق للطرفين معا أهدافا مسطرة من قبل (التعاقد البيداغوجي)، والبحث عن عمليات تيسر الفهم والتحليل والنقد للمتعلم الذي يعبر عن رأيه ويحاور ويناقش عكس التلميذ المتلقي والمستقبل للمعارف والمعلومات والمنصاع والممتثل للمعلم مالك المعرفة والسلطة (الطرق التقليدية في التعليم).

أصبح مدرس اليوم إذن أمام تدفق مفاهيمي جديد، خلخل بنى تكوينه، هذا الكم الهائل من المفاهيم زاد من هموم المدرس حيث الإهتمام بالمادة المدرسة وبطرق تدريسها وبالبيداغوجيات والدعامات الديداكتيكية المناسبة لذلك، إضافة إلى اهتمامه بالبحث والتكوين وتحفيز وتوجيه المتعلمين.[1]

هكذا أصبح المدرس يحظى بمكانة هامة في إطار المقاربات البيداغوجية النشيطة والمفتوحة، حيث انتقلت أدواره من التمركز حول المتعلم إلى التمركز حول التعلم، عن طريق تفعيل نظريات التعلم التي تركز على أهمية تحريك المتعلم لمعارفه، وذلك بإعطائه الدور المركزي فيما يخص حرية المبادرة في اتخاذ القرار والإختيار. وبهذا، يخرج المدرس من فضاء النمطية والتلقين إلى فضاء التعددية والإنفتاح، وقد يصبح «مخرجا» على حد تعبير «**أندريه جيوردان**» A. Giordan.[2]

كما لم يعد المدرس العالم والمالك الوحيد للمعرفة، بل إن الأمر أصبح يفرض واقعا مغايرا، إذ بات المدرس مطالبا بتغيير هذه النظرة وتكسيرها بتنويع موارده البيداغوجية، وبتنويع أساليبه التنشيطية[3]

II - بعض الكفايات والمواصفات المطلوب توفرها في المدرس (ة) في سياق التحولات التي تعرفها مهنة التدريس :

إن الشهادة الجامعية، الدكتوراه مثلا، لا تؤهل صاحبها لوحدها للتدريس، لأن التدريس مهنة، بل فن وصناعة، لذلك يلزمه امتلاك عدة بيداغوجية متينة وصلبة.

والمدرس الذي يعتبر حصوله على الشهادة (إجازة : أي إقالة من متابعة البحث والدراسة وربما التعلم) غير ملم بآليات التكوين المستمر، الذي يجب البحث عن صيغ ملائمة لتنظيمه وإجرائه بشكل منتظم.[4]

ولقد حددت مهام الممارس لمهنة التدريس حسب الأطر المرجعية والتوجيهات التربوية للميثاق الوطني للتربية والتكوين والبرنامج الإستعجالي، في مهام متعددة أهمها : التدريس الصفي إلى جانب تدبير التعلمات وتيسيرها إضافة إلى التعاون والعمل الجماعي والتنسيق المندمج وكذا التنمية المهنية، كما خصته بأدوار ريادية

جديدة ومسؤوليات ضخمة غير مألوفة في الفكر التربوي، فمدرس المستقبل ممارس ومشاهد ميداني ومبادر بالتجريب والتطبيق ومفكر ومبدع وموجه للعملية التربوية وميسر لها (حسب رأي الدكتور : محمد اشتاتو).

ولاشك أن الحراك السياسي والإجتماعي الراهن بالمغرب وبمحيطه الإقليمي والعربي «الربيع العربي» والتحولات الكبرى التي يشهدها العالم في زمن العولمة والثورات التكنولوجية، كلها عوامل ستؤثر بشكل دقيق وقوي على مهنة التدريس، وبشكل جلي في المدرس الذي أضحى أكثر من أي وقت مضى في مسيس/أمس الحاجة إلى التوفر على كفايات متعددة ومتشابكة ومعقدة منها ما يرتبط بالنظام التربوي ككل (ماكرو تربوية) ومنها ما يرتبط بمجال التخصص والتنظيم والتنشيط والتقويم ... (ميكرو تربوية).

المدرس المعاصر كما يؤكد على ذلك عدد من الباحثين التربويين: (وايتي Witty – كراسو Grasoo – فيلدمان Veldman – بوستيك Bostic ...) هو الذي ينصت إلى الإشراطات البشرية للمتعلمين، والمتحلي بالديمقراطية والتفاهم والتسامح معهم، والعارف بسيكولوجيتهم، والقادر على ربط علاقات ذات خصائص معرفية وعاطفية محددة معهم، والراغب باستمرار في تنمية وتطوير قدراته البحثية والمعرفية والسلوكية[5]

وهنا لابد من استحضار كل أبعاد العلاقة التربوية: (بعد بيداغوجي/ديداكتيكي – بعد تنظيمي – بعد علائقي)، والتي يلخصها «فيليب ميريو Ph. Meirieu» في مقولته الشهيرة : «**العاطفة سارية في الفصل الأكثر عقلنة وتنظيما**».

و تتجلى سمات المدرس الفعال في التكوين الأساس المتين المبني على كفايات تدريسية عامة وخاصة، زيادة على التكوينين الذاتي والمستمر (التعلم مدى الحياة)، وذلك من أجل تعليم المتعلم حب الحياة والاعتماد على النفس والتفكير بشكل صحيح مع التعلم دون الاعتماد على المعلم/المدرس.

هذا، ومن هذه السمات أيضا ضرورة تنمية الإتجاهات الإيجابية لدى المتعلمين، باعتبار المدرس نموذجا يحتذى به «النمذجة»، لذلك ينبغي عليه نقل كل ما هو إيجابي تماشيا ورسالته النبيلة، التي تعتمد على الإقناع والليونة لا على التحكم المفرط والقمع المستفز.

تقتضي مهنة التدريس، أن يكون المدرس كائنا مبدعا وقادرا على الخلق، وذلك كي لا يبقى طيلة حياته مكررا لمعرفته الخاصة وموزعا لها، وهذا يقتضي امتلاكه لملكة الخيال، التي يعتبرها «بورديو» : ملكة الملكات.[6]

كما تعتبر هذه المهنة أيضا فنا وصناعة ودربة وبحث مستمر، والمدرس هو القائم على تذليل عقبات الفهم والإفهام بكل مشقة ومعاندة وصبر، وتبعا لذلك فهو محتاج إلى طاقات كبيرة ومقومات هائلة في شخصيته، وإلى تكوين حقيقي وصناعة عالية في ملكاته وكفاياته باستمرار.[7]

هكذا، أصبحت كفايات المدرس (ة) في سياق التحولات الراهنة تتطلب حسن التصرف والمزاوجة بين التنظير والتطبيق مع احترام أخلاقيات المهنة والتدبير المعقلن لزمن التعلم والزمن المدرسي، فهذا الزمن يعد مؤشرا رئيسيا في بناء مفهوم الحكامة الرشيدة وتحقيق الجودة في ميدان التربية والتكوين.

III- التحديات التي يواجهها المدرس : حديث ذو شجون :

المدرس هو الركن الركين في بناء مستقبل بلده، فإذا تمادينا في إهانته وتغليب المتعلم عليه، والتنقيص من قيمته، فإننا سنصل بتعليمنا إلى الباب المسدود، لأن سنام الأمر كله مرتبط بالمدرس، فصلاحه صلاح للمنظومة التربوية، وفسادها بفساده.[8]

وهذا «**الرسول المغبون**» حاليا :

ما هو إلا ذبالة وقدت تضيء للناس وهي تحترق» [9]

لذا، على من يهمه أمر التعليم ببلادنا أن يعيد النظر وبإرادة حقيقية في حالة هذا الفاعل التربوي الديناميكي الذي يواجه اليوم تحديات جمة : (الإكتظاظ، العنف المدرسي، تدني الأجر، غياب برامج التكوين المستمر وأنظمة التحفيز ...) نزلت به إلى الدرك الأسفل في مجتمعه، بعدما كان في الزمن الجميل عنصرا فاعلا ومثقفا عضويا ضمن الطبقة الوسطى، التي والله لا ينتمي إليها اليوم إلا حسب تصنيف الجاحدين!

و إذا كان أي نظام تعليمي لا يخلو من عثرات وأزمات، فمن المسؤول عن تشويه صورة رجال ونساء التعليم وترسيخها في المتخيل المغربي اليوم؟

أليس المدرس هو حجر الزاوية في إصلاح منشود؟ أم أن عائق الذهنيات (جيوب مقاومة الإصلاح) يقف حجر عثرة أمام إنصاف المعلم الذي تحدث عنه أمير الشعراء أحمد شوقي؟

أعتقد أن التأثيرات السلبية لبعض وسائل الإعلام وتغييب قضايا وهموم رجال ونساء التعليم في سياسة الحكومات المتعاقبة وفي برامج بعض الأحزاب السياسية، ساهمت في تدني مستوى العلاقة بين المدرس والمتعلم، وبين الأسرة والمدرسة، بل بين المجتمع والمدرسة ككل.

كل الدول في حاجة ماسة إلى مدرسة السلام كما قال : «ألبير جكار» والمغرب كما يعلم الجميع عرف تغيرات ديموغرافية وعلمية ومعرفية واقتصادية وعلائقية، مست بنياته الأساسية، وهذا أثر سلبا على المعيش اليومي والمهني للمدرس، الذي ازدادت الضغوط الداخلية والخارجية التي يتعرض لها، والتي تؤدي حتما إلى استنزاف جسمي وانفعالي، يظهر جليا من خلال فقدان الإهتمام بالمتعلمين وتبلد المشاعر ونقص الدافعية وفقدان الإبتكارية. ويؤدي افتقاد المدرس للدعم الإجتماعي إلى زيادة احتمال وقوعه فريسة للإحتراق النفسي :

(الرتابة والملل، الشعور بالعزلة، الإنغلاق على النفس...).[10]

إن الإنسان لم يخلق من أجل التأمل، بل من أجل الفعل (جان جاك روسو)، فعلى كل مهتم وغيور على قطاع التربية والتكوين تأمل معاناة رجال ونساء التعليم أثناء ممارسة مهنتهم النبيلة، مع الأخذ بمحمل الجد مشاكلهم المتمثل بعضها في ما يسمى بأصحاب «الزنزانة 9»، وفي الجمود في السلم 11 بالنسبة للإبتدائي والإعدادي، ناهيكم عن ظاهرة الأشباح ومخلفات المغادرة الطوعية ... هذا غيض من فيض أما البقية فهي واضحة للعيان!

IV- المدرس (ة) والآفاق المستقبلية :

إن تعزيز إنتماء المدرس لمهنته ورسالته والإرتقاء بها، يتطلب إشراكه في أي مشروع إصلاحي، وتحسيسه وتوعيته بأهميتها ودورها (مهنته) في بناء مستقبل الوطن، والعمل على تكوينه تكوينا متينا وإيلائه أهمية ترقى به في المجتمع من خلال تحسين ظروفه المادية وضمان عيشه الكريم – حتى لا يصبح مادة للتنكيت والسخرية – لأن صورة المدرس في أي مجتمع تنم عن القيمة التي يتبوأها هذا المجتمع في سلم الرقي والإزدهار.[11]

و من البديهي أن تحسين ظروف عمل المدرس، تساعده على تمثل قيم مهنته وأخلاقها وملازمتها كسلوك يومي في حياته، كما تساهم في خفض «الإحتراق النفسي» لديه عبر تمكينه من الاستفادة من برامج «الدعم الاجتماعي الأدائي» التي تهتم بالصحة العقلية والنفسية للمدرس، الواجب عليه هو الآخر الإنخراط الفعال في البحث والتجديد التربويين للرفع من المردودية، رغم غياب التحفيزات حاليا، والتكوين بطرق آلية وهضم حقوق البعض في الترقي والتمييز بين موظفي القطاعات : أفليس مثبطا أن يكون راتب دكتور في التعليم المدرسي لا يتجاوز نصف راتب نظيره في باقي القطاعات؟ أليس التعليم قطاعا منتجا؟[12]

إن الوقت قد حان لوضع تصور جديد للقوانين الأساسية للوظيفة العمومية، وذلك بغية إدخال الحركية الفعلية بدل منصب الشغل الذي يقتل الإبداعية والفاعلية والإجتهاد، ولكن هذه الثقافة تتطلب رؤية ونفسا وألما في آن واحد.[13]

ولا يستقيم دور المنظومة التعليمية كقاطرة للتنمية، إلا بالإهتمام بالموارد البشرية والعناية الكاملة بالمدرسين لأنهم حجر الزاوية في كل إصلاح مرتقب، كما أن الحاجة أصبحت اليوم أكثر إلحاحا فيما يخص وضع المعطى الإجتماعي والنفسي والرمزي للمدرسين على رأس هذا الورش الإصلاحي.

خلاصة

يعد المدرس فاعلا رئيسيا في إعادة البناء الإجتماعي والإقتصادي والثقافي والسياسي لأي بلد، لذا بات لزاما على الجميع إعادة

الإعتبار لهذا الفاعل التربوي، لأن في ذلك إعادة الإعتبار للمدرسة المغربية، أما الإجتهاد في تهميشه وتحقيره وتفقيره فلا يساهم إلا في إنتاج الأمية وزيادة الإحتقان الإجتماعي. فمتى ستستيقظ الضمائر الحية لإرجاع الثقة للمدرس للإطمئنان على مستقبل هذه المهنة التي قال في حقها الشاعر العربي أحمد شوقي :

قف للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا !؟

المراجع

1 - ذ. عبد الحق لشهب : (المدرس وسط مسلسل الإصلاح) جريدة المنعطف (المنعطف التربوي)، العدد : 3612، «الأربعاء 2010/01/06»، ص : 5.

2 - ذ. فريد بياض : (البيداغوجيا النشيطة وقلب الأدوار داخل الوضعية التربوية) مجلة «علوم التربية»، العدد : 44 (يوليوز 2010)، ص : 45 - 46.

3 -ذ. رشيد الخديمي : (إعادة الروح للحياة المدرسية) جريدة «الإتحاد الإشتراكي» - الملف التربوي - العدد : 9745، «الخميس 31 - 03 - 2011».

4 - ذ. عبد الحق منصف : (مشكلات العلاقة البيداغوجية داخل المدرسة المغربية) مجلة «دفاتر التربية والتكوين» العدد : 1 (نونبر 2009)، ص : 38.

5 -د. أحمد أوزي : (المراهق والعلاقات المدرسية) منشورات مجلة «علوم التربية» - -29، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة 3 (2011)، ص : 100.

6 -د. محمد بوبكري : (المدرسة وإشكالية المعنى) السلسلة البيداغوجية 6--، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة 1 (1998)، ص : 117.

7 -د. محمد بازي : (صناعة التدريس ورهانات التكوين) منشورات مجلة «علوم التربية» -23-، الطبعة 1 (2010)، ص : 12.

8 - ذ. حمادي الموقت : (المدرس والتدريس في المغرب ... بقايا مهنى) جريدة «المساء» - المساء التربوي - العدد : 1286، (الثلاثاء 09 - 11 - 2010)، ص : 21.

9 - الإمام الغزالي (إحياء علوم الدين)، الجزء الأول : (ص : 55).

10 - ذ. جمال الحنصالي : (البعد النفسي والممارسة التربوية) جريدة : «الإتحاد الإشتراكي» - الملف التربوي - العدد : 9674، «الخميس 2012/01/06».

11 - ذ. عبد الحق لشهب، مرجع سابق.

12 - ذ. المصطفى مرادا : (عائق الذهنيات) جريدة : «المساء» - المساء التربوي - العدد : 1629 «الثلاثاء : 20 - 12 - 2011»، ص : 20.

13 - د. الحسن اللحية : (منصب الشغل يقتل الإبداعية) جريدة : «المساء» - المساء التربوي - العدد : 1623 «الثلاثاء : 13 - 12 - 2011»، ص: 21.